ولو كانت البنت هجينا . وكانت لفظة بلوي تحمل كل سمات الزعامة [1] لا الرجل العربي فحسب بل إنها كانت تعني السيادة بكل معانيها على الأفراد البجاويين الذين كانوا ينقسمون إلى عشائر وبطون وأفخاذ شأنهم في ذلك شأن عرب الجزيرة . ولكنهم كانوا يختلفون عن عرب الجزيرة في أنهم ينضوون تحت ملك واحد من بين خمس ممالك للبجة

وبذلك فهم يكونون أمة موحدة وليسوا كعرب الجزيرة الذين لم تكن تربطهم دولة واحدة قبل الإسلام .

الفصل السادس :

تدفق بعض القبائل من شبه الجزيرة العربية إلى السودان عن طريق مصر

كان أول فوج من أفواج العرب المسلمين الذين دخلوا مصر لأول مرة ذلك الجيش القليل العدد الذي كان يقوده سيدنا عمرو بن العاص [1] عندما وافق سيدنا عمر بن الخطاب على اقتراحه بفتح مصر . وكان كل ما مع عمرو من جنود يتراوح عددهم ما بين ثلاثة آلاف وخمسمائة إلى أربعة آلاف رجل . وقد أرسل عمرو بهذا العدد ودخل مصر في شتاء عام ١٨هـ

---

[1] محمد صالح ضرار : تاريخ السودان – البحر الأحمر ص

[1] كان عمرو بن العاص من بني سهم القرشيين ، أما أمه فكما جاء في المصادر فقد كانت عنزية ، أما أم والدة العاص فقد كانت من بلي .

الموافق ديسمبر ٦٣٩م .. وكان معظم هذه القوة يتألف من الفرسان . ولم يلبث عمرو أن طلب المزيد من الرجال من الخليفة الذي اقتنع بضرورة إرسال المدد من الرجال والفرسان والقادة ، فكان ممن أرسل إليه سيدنا الزبير أبن العوام في صيف العام التالي (يونيو ٦٤٠م) كما كان معه حوالي اثني عشر ألف مجاهد . واستطاع عمرو بتلك القوة أن يستولي على الإسكندرية التي سقطت في يده في سنة ٢٠هـ / نوفمبر ٦٤١ م . وبذلك انقطعت الأسباب بالروم في مصر .

ولم يكن عمر بن الخطاب (ض) يميز بين قبيلة وقبيلة حين يرسل الأجناد للفتوح ، بل كان يجمع الجموع ، ويوصيهم خيرا ، ثم يبعثهم إلى حيث كانت الحاجة إليهم . وكان هناك كثير من قادة قريش وكبار الصحابة في تلك الحشود التي يرسلها ، كما كانت أغلبية الجند من الأعراب الذين كانوا ينزلون في بوادي الجزيرة العربية .

ولم تذكر كتب المؤرخين العرب ورواياتهم الكثير عن القبائل التي أسهمت في فتح مصر ، وكان هذا يعكس فكرة الخليفة الثاني عن الدولة الجديدة التي انشئت ، فهي ليست دولة عربية ، ولكنها دولة إسلامية رغم أن كل جنودها آنذاك كانوا من العرب ، وعلينا ألا ننسى أن الديوان الذي انشأه عمر (ض) سواء في مصر أو في غيرها كان يسجل المجاهدين المسلمين حسب قبائلهم العربية . الا أن المؤرخين درجوا على وصف الفاتحين بالمسلمين وهذا ما جعل تفاصيل القبائل المشتركة غائبا عن الروايات . ولكن مع كل فقد كانت هناك قبيلتان ظهرت أسماؤهما بقوة على أنهما من بين كبار المجاهدين في ذلك الفتح ، وهاتان القبيلتان هما لخم وجذام . كذلك فقد كانت هناك كل من جهينة وبلي في ميادين القتال بمصر ، وقد أمر الخليفة عمر (ض) بإرسال ثلث

قضاعة إلى مصر تجنبا لنعرة الجاهلية في فلسطين والشام حيث كان كثير من قضاعة في صفوف الجند المسلمين .

وكان فتح العرب المسلمين لمصر سريعا إذ أنه بدأ في العام الثامن عشر الهجري / ٦٣٩م ، فلما جاء العام الثاني للفتح (٢٠هـ / ٦٤١م) كانت كل مصر قد دانت للمسلمين ، واتفق الأقباط مع المسلمين على قبول حكمهم مقابل بعض شروط التسليم التي قبلها الجانبان والتي كانت مشجعة للأقباط لقبول الحكم الإسلامي . [1] وبسبب هذه الشروط المجزية خضعت مصر من البحر الأحمر حتى برقة ، ومن البحر الأبيض المتوسط حتى أسوان لخليفة المسلمين وأصبحت دارا للإسلام .

بالرغم من خضوع مصر للدولة الإسلامية الا أن الخليفة عمر (ض) لم يكن مطمئنا إلى هذا النصر السهل ، وكان أكثر ما يخشاه أن تقوم مملكة النوبة التي تقع في ما وراء الحدود المصرية السودانية بهجوم على صعيد مصر وتهدد الوجود المسلم في مصر .وكانت هناك علاقات وطيدة بين إمبراطورية الروم البيزنطيين في القسطنطينية وبين مملكة المقرة النوبية إذ كانت كلتا الدولتين تدين بالمسيحية . لهذا فقد قرر سيدنا عمر (ض) الهجوم على النوبة لإضعاف قوتها ، وجعلها تبتعد عن القتال . لهذا فقد ذكر المؤرخون أن الخليفة أرسل جيشا قوامه عشرون ألف رجل في سنة ٢١هـ / ٦٤١م لتدويخ النوبة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح . وقد توغل هذا الجيش العربي المسلم في داخل الأراضي السودانية ، وكان من أكبر الجيوش التي عبرت حدود السودان ، ولأول مرة التقى فيها العرب بالنوبة ، وانتهت المعارك بمعركة رماة الحدق التي قال فيها المؤرخون المسلمون إنها فقئت فيها عيون

---

[1] انظر هذه الشروط في موضع آخر من الكتاب .

كثير من المسلمين بواسطة سهام النوبة . بيد أن المهم في هذه الحرب هو التفاهم الذي حدث بين الجانبين والذي انتهى بتبادل هدايا معاهدة البقط .

والتزم الخليفة أمير المؤمنين بسياسته التي وضعها في كل الأمصار المفتوحة ، وهي التي تتمثل في عدم التفريط في الأجناد [1] المسلمين كأجناد ، ومنعهم من الاشتغال بالزراعة أو التجارة ، وإنزالهم في أطراف المدن على مشارف الصحراء حتى لا يفقدوا خشونتهم ، وحتى لا يستطيبوا رغد العيش ، وقد ظهر ذلك جليا حين زار المسلمين في فلسطين وهو يريد أن يتسلم بيت المقدس ، وذلك حين رأى أن قادة المسلمين ومن بينهم خالد قد اكتنزت أجسامهم ، وتوردت بشرتهم ، فشد بقبضته على زندهم وهو ينتقد حالتهم تلك ، والرفاهية التي استمرؤوها . ولذلك فقد كان عمرو يمنع جنوده من الاختلاط بأهل البلاد ، ولم ينزل المسلمون في القرى والضياع ، وبذلك فإنهم لم يغيروا من باديتهم إلى الركون إلى الحياة الحضرية ، ونعم المدن وطعامها .

لذلك فقد أبقى عمرو بن العاص جنوده بعيدا عن المدن والقرى ، ولم يسمح لهم بممارسة الزراعة ، وكانت أرزاقهم تأتي مما يدفع للدولة من زكاة وخراج وجزية . [1]

وكان من اكبر الجيوش عددا ذلك الجيش الذي قاده عبد الله بن سعد بن أبي السرح لقتال النوبة سنة ٣١هـ / ٦٥١م إذ بلغ عدده حوالي عشرين ألفا من

---

[1] المقريزي – الخطط . الجزء الثاني – ص ٢٥٩ – طبع بيروت . كتب عمر بن الخطاب الى المسلمين في مصر بأن عطاءهم قائم ، وأن أرزاق عيالهم سابل فلا يزرعون ولا يزارعون .

[1] نقلا عن الدكتور محمد عوض محمد (السودان الشمالي) فانه يذكر بأن المقريزي قال بأن جيش عمرو بن العاص كان يشتمل على نسبة عالية من اليمنية وعلى الأخص من جهينة ، ثم يخبر بأن القبائل التي تألف منها هذا الجيش قد خفى أمرها بعد ذلك " . ص ٢٠٩ .

مختلف القبائل . وكان هذا الجيش في صعيد مصر ، ولما أتم استعداداته انطلق إلى أرض النوبة ، وتوغل فيها ، ووصل إلى دنقلة حيث قاتل النوبة قتالا شديدا انتهى بصلح البقط .

ومنذ ذلك الحين أخذت جموع من العرب تخرج من شبه الجزيرة العربية إلى مصر وما وراءها سواء أكان ذلك لشمال إفريقيا أم للأراضي السودانية ، وصاروا يعبرون أرض الكنانة ليصلوا إلى جبهات الجهاد ، ولكن لم يعرف أن أحدا منهم قد رجع أدراجه إلى شبه الجزيرة العربية . ومازالت أعداد هؤلاء المجاهدين تتزايد عند مجيء كل أمير . وقد بلغ عدد الأمراء الذين تولوا الإمرة في مصر منذ إمارة عمرو بن العاص في ولايته الثانية إلى تولية عنبسة بن إسحاق الضبي سنة ٢٤٢هـ / ٨٥٦م ما لا يقل عن ثلاثة وثمانين أميرا وذلك منذ ولاية عمرو الثانية على مصر في عهد معاوية بن أبي سفيان سنة ٣٨هـ / ٦٥٨م .

ويضيف الدكتور يوسف بأن كل القبائل العربية كانت ممثلة في أولئك المهاجرين الا أن الأغلبية كانت من اليمنيين ، ونضيف بأن جهينة ربما كانت أكبر تلك القبائل عددا .

وطوال القرنين الأولين من الهجرة لم يسكن العرب مع أهل مصر بشكل واسع ، ولم يختلطوا بهم ، [1] بل كان اختلاطهم أكثر فيما وراء الصعيد حيث أخذوا يشترون الضيعات من النوبة ويتملكونها طوال عهد الأمويين

---

[1] المقريزي : الخطط – ص ٢٥٩ – الجزء الثاني – طبعة بيروت : اذ يقول : " ان الديار المصرية لما افتتحها المسلمون كانت خاصة بالقبط والروم مشحونة بهم ، ونزل الصحابة رضي الله عنهم من أرض مصر في موضع الفسطاط وبالاسكندرية ، وتركوا سائر قرى مصر بأيدي الأقباط ... ولم يسكن أحد من المسلمين بالقرى ... "

وأوائل العهد العباسي حتى استفحل الأمر في خلافة المأمون بن هارون الرشيد حيث شكا ملك النوبة إليه أن المسلمين قد أخذوا يتملكون الأراضي هناك . وبعد دراسة للموقف قرر المأمون أثناء زيارته لمصر والصعيد بأنه ليس هناك ما يمنع المسلمين من اقتناء الضياع عن طريق شرائها من مسلمي النوبة الذين رفضوا استعباد ملك النوبة لهم كما كان الأمر من قبل .

وبالإضافة إلى هذه الإمداد من الجنود المسلمين الذين كانوا يرسلون إلى مصر حسب الظروف فإنه كان الأمراء الذين يؤمرون على مصر يذهبون إليها ومعهم بعض رجال قبائلهم . كذلك كان بعضهم يستأذن الخليفة في دمشق أو بغداد ليجلب عددا من رجال قبيلته طالما كان ذلك لن يؤثر على خراج أو زكاة .

وما زال عدد المسلمين يتزايد في مصر حتى إنه عند قيام الفتنة الثانية في أيام مروان بن الحكم (٦٤-٦٥هـ) كان عدد الجنود المسلمين في مصر قد بلغ حوالي ثمانين ألفا . وتقول المصادر بأنه في ذلك الوقت كان الجنود الأوائل الذين خرجوا منذ سنة ٢٠هـ قد أخذوا في التناسل طوال الأربعين سنة مما ضاعف عدد العرب هناك . ولم يكن حتى ذلك الوقت قد ظهر التبر في وادي العلاقي ، بل كانت الأعطيات بسبب الجهاد في سبيل الله هي من أهم أسباب الهجرة ، كما أن الإغارات الرومية من وقت لآخر ، والانتفاضات القبطية من حين لحين قد جعلت إرسال الإمدادات أمرا ضروريا . وفي سنة ١٠٠هجرية ألحق أيوب بن شرحبيل أمير مصر خمسة آلاف رجل بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بالقوات المسلحة في مصر ثم أرسل ألفا رجل في سنة ١٣٧هـ إلى مصر بأمر صالح بن علي العباسي .

وكان الولاة العرب الذين يتولون الإمرة في مصر يستأذنون الخلفاء في أن يسمحوا لهم بإحضار أعداد من رجال قبائلهم ، وكانوا يفعلون ذلك بكثير من اللطف والرقة ، مع توضيح أن مثل هذا الأمر لن يؤثر على اقتصاد الموقع الذي سيهجره هذا النفر من الناس .

ونجد خير مثال لذلك ما فعله عبيد الله بن الحبحاب عندما ولاه الخليفة هشام أبن عبد الملك مصر. وكانت هناك منافسة قوية بين القيسية واليمنية في الخلافة الأموية ، فلما ذهب عبيد الله إلى مصر أراد أن يكون له سند من قبيلته فكتب إلى هشام قائلا : " ما أرى لقيس فيها حظا (أي في مصر) إلا لناس من حلة وهم فهم ، وعدوان . وقال إن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحي من قيس ، ... ورفع من ذكرهم . إني قدمت مصر فلم أر لهم حظا إلا أبياتا من فهم وفيها كور ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجا ، وهي بلبيس ، فان رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحي من قيس ، فليفعل . " فكتب إليه هشام " أنت ورأيك "

فبعث إلي البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بني نصر بن معاوية ، ومائة أهل بيت من بني عامر بن صعصعة ، ومائة أهل بيت من هوازن ، ومائة أهل بيت من سُلَيم . فأنزلهم بلبيس ، وأمرهم بالزرع . ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم ، فاشتروا إبلا ، وكانوا يحملون الطعام إلي القلزم ، فكان الرجل يحصل له في الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل . ثم أمرهم باشتراء الخيول ، فجعل الذي يشتري المهر فلا يمكث إلا شهرا حتى يركب ، وليس عليهم مؤونة في علف إبلهم ولا خيولهم لجودة مرعاهم . فلما بلغ ذلك عامة قومهم ، تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية ، فكانوا على مثل ذلك . فأقاموا سنة فأتاهم نحو خمسمائة من أهل بيت . ومات هشام وببلبيس

ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس ... ولما مات مروان كان بها ثلاثة آلاف أهل بيت ... ثم توالدوا ، وقدم عليهم من البادية من قدم فأحصوا في ولاية محمد بن سعيد ، فوجدوا خمسة آلاف ومائتين ما بين صغير وكبير ."

وفي سنة (١٤٣هـ / ٧٦٠م) ولى أبو جعفر المنصور حمير بن قحطبة أبن شبيب بن خالد بن سعدان الطائي على صلات مصر وخراجها . فدخل مصر في عشرين ألفا من الجند في ٥ رمضان سنة ١٤٣هـ ثم قدم عسكر آخر في شوال من نفس السنة . [٢] وتتضح صورة الاختلاط العربي بالمصريين من تتبع ما كان يفعله العرب حين فتحوا مصر واستقروا بها . وتكملة لحديثنا في فقرة سابقة عن عدم اختلاط الشعبين في أول الأمر مع بعضهما بعضا فإننا نقتطف هنا ما قال المقريزي في هذا الشأن . فالمقريزي يقول بأنه : " لم ينشر الإسلام في قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى سلول قيسا بالخوف الشرقي . فلما كان بالمائة الثانية من سني الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها " [١]

كان هذا بداية توطين القيسية واشتغالهم بالزراعة مما ساعد على اختلاطهم بالأهالي المصريين في المناطق البعيدة والمجاورة أيضا ، وكان ذلك عاملا من عوامل نشر الإسلام والعروبة .

وفي سنة ١٥٣ هـ أحصي عدد القيسية فوجدوا أنهم خمسة آلاف ومائتان أهل بيت صغيرا وكبيرا . [٢]

---

[٢] المقريزي : الخطط – ص ٣٠٦ ج ١ بيروت

[١] المقريزي : البيان والاعراب ، ص ١٠١ تحقيق عبد المجيد عابدين .

[٢] نص البيان : ص ٦٨

ولعل القيسية هم من أول من مارسوا الزراعة من عرب الشرقية في مصر ، ثم تبعتهم بعض القبائل الأخرى التي استوطنت هناك بعد الفتح الإسلامي لمصر ، وإعطاء الأمان ذي الشروط السخية للأقباط . ولم تكن هناك حاجة كبيرة لإرسال الجند إلي مصر خاصة بعد أن تم التوصل إلي صلح مع النوبة . ولكن ما لبث أن تغير الوضع بعد حين إذ أن الأقباط قاموا بثورة عارمة في سنة ٧٧٢م أي بعد نصف قرن من وفاة عمرو بن العاص (ض) ، وكانت تلك الثورة بداية لسلسلة من ثورات الأقباط التي كانت تندلع بين حين وآخر .

وربما كان بسبب هذه الثورات أن شجعت قبيلة قيس عيلان للهجرة إلي الأراضي المصرية لتكون قوتها ردعا لثورات الأقباط ، الذين كان عددهم قد بلغ حوالى خمسة ملايين نسمة .

وعند قيام الثورة العباسية على الأمويين ، كانت مصر هي الأخرى مسرحا للقتال بين الفئتين المتنازعتين ، وأرسل العباسيون جيشهم إلي مصر لمقارعة مروان واستئصال شأفة الأمويين . وكانت هذه الحرب بمثابة دعوة للقبائل العربية المناوئة للأمويين للهجرة إلي مصر ، وإضافة دم عربي جديد للعنصر العربي القديم .

وزاد من هجرة العرب أيضا إلي مصر خروج القرامطة وتهديدهم للشام ، ثم نجد كذلك أن بعض القبائل العربية التي كانت تقطع طريق الحاج مثل سليم ومن حالفها شقت طريقها هي الأخرى إلي مصر . وكانت هذه القوات العربية تتدفق الفينة بعد الأخرى ، ومن بينها من نزح منها في أيام المأمون .

وكانت النوبة تشق عصا الطاعة من حين إلي حين ، كما كان البجة قد تضجروا من الوجود العربي في أراضيهم ، أو لعلهم ضاقوا من العيش الهزيل الذي كانوا يعيشونه ، فأخذوا يغيرون على أطراف الديار المصرية مما أثار العباسيين عليهم فأرسلوا لهم الجنود لاخضاعهم للخليفة العباسي . وكانت كل هذه أسباب قوية أدت إلي إرسال القبائل العربية إلي مصر وصعيدها عبورا من هناك إلي الأراضي السودانية من بجاوية ونوبية .

ولكن بعد أن منع الخليفة المعتصم العرب من الالتحاق بالجيش العباسي ، لم تعد هناك حاجة إلي هؤلاء العرب للجهاد في سبيل ا لله ، وانقطعت أرزاقهم . ولكن ظهر في نفس الوقت التبر في وادي العلاقي بأرض البجة فانتقلت إليه كثير من تلك القبائل سعيا وراء جمع المال ، والتعدين في مناطق الذهب ، وإيجاد رزق بديل عن ذلك الذي قطعه منهم الخليفة المعتصم أبن هارون الرشيد .